نـافـذة

كاتدرائية العباسية ومارية القبطية

ترافق قبل سنوات عيد الميلاد مع عيد المولد النبوي الشريف، وكانت مناسبة نادرة ومعبرة، وقد احتفى بها المسيحيون والمسلمون، وأقاموا احتفالات مشتركة برسولين لا برسول واحد، دعا كلاهما للحب والإخاء والحياة الكريمة المتسامحة، وأذكر أن عدداً غير قليل لم يكن يعنيه الآخر، تحول في ذلك اليوم وشارك، وهنا لا أقصد رجال الدين والعلماء، فهم يقومون بذلك بروتوكولياً، سواء كانوا مقتنعين أم لم يكونوا، وأعتذر لتحفظي على القناعات، فهي حقيقة، ومن الطرفين معاً، وإلا ما وجدنا ما يحصل على الأرض اليوم... ويوم مولد النبي محمد هذا العام لم يترافق مع ميلاد يسوع، لكنه جاء يوم الأحد، وهو عيد وصلاة مرفوعة ليسوع المخلّص، ولم أصدق أن مولد النبي يقدم هدية للمؤمنين بيسوع في كاتدرائية العباسية في القاهرة، تلك الكاتدرائية التي دخلتها قبل تسعة عشر عاماً، وأذكر يومها أنني قلت لصديقي: جئت إلى هذه الكنيسة لأقدم صلاتي أول مرة في صرح قبطي، فمارية القبطية أم المؤمنين وزوج النبي محمد، وأم إبراهيم، هي التي أدخلت إلى قلبه البهجة والسرور بولادة إبراهيم منها، وعندما رحل إبراهيم هي من كفكف دموعه وهو يقول: إن القلب ليخشع، وإن العين لتدمع، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون... تعجب صديقي، وكأنه لا يعلم أن أم إبراهيم مارية قبطية أرسلها المقوقس للنبي محمد، ولا يدري أنها كانت حرة محترمة في دينها والبقاء عليه، وأنها تنادى عند أي مسلم بأم المؤمنين.. لا أدري الخشوع الذي هبط في روحي يومها في كاتدرائية العباسية التي كانت محطة مهمة أنوي بعدها لقاء البابا شنودة، لكن سفره حال دون ذلك، ولا تزال سبحته الفضية تذكرني بنبله وانتمائه ووطنيته.

حين كشف الاسم الذي اعتدى على المؤمنين في كاتدرائية العباسية كان مسلماً، فهل عرف هذا مكانة الأقباط؟ وهل عرف أن النبي نهى عن الاقتراب من كنائسهم في الحرب فما بالنا بالسلم؟ ألم يخطر بباله ووجدانه- إن ملك- أن أحد هؤلاء المؤمنين كان سعيداً بميلاد محمد، وأنه عازم على الاحتفال؟

ألم يشرب معه ماء النيل؟ ألم تظللهم عظمة أبي الهول؟ ألم يسيرا طريق آلام النصر والهزيمة والسعادة والشقاء معاً؟ ألم يبيتا كل على طريقته يدعوان بأن تكون الحياة أفضل؟ وكيف تكون أفضل؟ هل أغادرها مطروداً منبوذاً مقتولاً ملخطاً بدماء بريئة بينها وبين النبي مصاهرة؟ هل أبكى النبي محمداً مرتين أولى على إبراهيم وثانية على أخواله؟ ترى هل تلقى هذا القاتل دروساً على علماء ومشايخ؟ هل قرأ سيرة النبي وأوامره ونواهيه؟ هل سمع بنصائح الصديق وتوجيهات الفاروق للسرايا التي تذهب للفتح والدعوة؟ أستميح نفسي عذراً قبل أن أستميح الآخر، لا أحد يستطيع أن ينفي انتماء القاتل، ولا أحد يستطيع نفي هويات الضحايا، ولا أحد يمكنه أن يرد التهم عن الفكر الذي يعتنقه، ولا أحد ينكر أن كل شيء يحمله الإسلام في هذا الزمان! ولا يستطيع العلماء ورجال الدين والدولة أن يتملصوا من مسؤولياتهم عن هذا الفكر المتطرف المشبع بالقتل للاشيء، وبالجريمة والإساءة إلى الذات قبل النيل من الآخر... نعم إن الفهم الحالي للإسلام من أبنائه وخصومه مسؤول مسؤولية تامة عما يجري، وإن رؤوس الأموال التي يضخها ولاة الأمر المسلمون مسؤولة عن كل قطرة دم... قد تكون جريمة كاتدرائية العباسية النكراء المنكرة سبباً مباشراً في الحديث، لكن ألا يمثل خبر مقتل فتاة على يد والدها لشكه بسلوكها وهي الطفلة سبباً في إعادة التفكير؟ ألا يمثل الحديث الذي نسمعه من خطبائنا على المساجد والمتّسم بالتشدد والصرامة دافعاً لإعادة قراءة الدين قراءة صحيحة؟ وليس صحيحاً ما يقوله بعضهم من أن تجديد الخطاب الديني دعوة أميركية!! فهل إذا أصلحت تعاملي مع أسرتي أخدم أميركا؟ وهل إذا أشعلت شمعة على تمثال العذراء عليها السلام أنفذ مخططاً أميركياً؟ وهل إذا دعوت صديقي المسيحي لحضور احتفال بالمولد أكون خادماً لمشروع أميركي؟

عيب كبير ما يجري وما يحدث، وما يتم نقاشه، فإذا كان القرآن يدعونا من أسس الإيمان أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فكيف لا نمتثل؟ هل الإيمان بالقتل؟ هل الإيمان بالرفض؟!

قال لي أحدهم: إن المسيحيين لا يعترفون بالإسلام وما يقولونه مجاملة!

هب أن هذا الكلام صحيح، فمن طبيعة الأشياء ألا يعترف السابق باللاحق ببساطة، ولكن ألا يوجد بين المسلمين من لا يعترف بالإسلام نفسه؟ أما ما يقولونه مجاملة فهذا كلام خطير، فهل أحكم على نوايا الناس؟ من هنا جاءت الخطورة بادّعاء المعرفة، وادّعاء الطهرية في الذات، والانحراف في الآخر، وخاصة أن لا أحد يعترف بالآخر، ولا يعرفه، ولا يريده، ومناهجنا قاصرة ومقصّرة... أذكر أن العلامة محمد مهدي شمس الدين قال لي: عندما كنت أدرس في النجف لم يسمح لنا بأن نطلع على كتب الأئمة الآخرين، وهذا الكلام دونته ونشرته، فإذا كان المذهب يمنع أتباعه الأكاديميين من معرفة شركائهم، فما بالنا بهذا التعليم إذا كان الانتماء إلى شريعة أخرى؟

يكفينا ما قمنا بتمثيله من أدوار، أمتنا اليوم تشهد ولادة جديدة علينا أن نسعى بعدم تجميلها وترميمها حتى لا تنفجر مرة أخرى، فلتكن نهضة كاملة اجتماعياً وثقافياً وفكرياً ودينياً... ولنسعَ إلى تكوين طبقة المتنوعين لا إلى محاربتها، وللحديث صلة تتعلق بالتنوير والسياسة، لكن كاتدرائية العباسية المقدسة وأيقونات يسوع والعذراء، وكل صليب فيها، وكل كرسي، وكل جدار، وكل روح، كلها روح وريحان وشموع وبخور، وكل قطرة دم سالت من مؤمن، وهو مؤمن حق تستصرخ الضمائر أن نعيد نهضتنا أن نعود إلى احترام بعضنا، أن نؤمن بأننا على صواب من وجهة نظرنا، وأن الآخر على صواب من وجهة نظره، وأن نؤمن بما في الكتاب (لكم دينكم ولي ديني) وأن نؤمن بأن هذه الجريمة البشعة لم تهز عرش أميركا ولا روسيا ولا فرنسا ولا رئيس الدولة المصرية، بل هزت القناعات بالإسلام واستجلبت غضب الرب، ودمعات ألم من الرسول محمد ومارية القبطية هذا إن كنا مؤمنين حقاً... ولكم الجنان أيها المؤمنون الضحايا وللمجرم اللعنات.

إسماعيل مروة

تأثر بأصوات المؤذنين العرب ونهل منها

التينور اللبناني غابرييل عبد النور لـ«الوطن»: أشعر بأن حلب تناديني.. وهذا أمر لا يمكنني تفسيره

سوسن صيداوي

من بين اللغات العشر التي يغنيها.. الروح متعانقة بين حرف الضاد وصوته الذي ألف اللغة العربية وصفاها كي تكون الأجمل عبر صوته وغنائه، غابرييل عبد النور اللبناني الملقب بالتينور «أعلى الأصوات الغنائية الرجولية في المجال الوسطي» يجول العالم بصوته الذي هو مفتاحه لأبواب القلوب والدخول مستقراً بسكينة في أحضان المحبة، يتنقّل بين المدن حاملاً وطنه لبنان في قلبه أينما ذهب، مرة وأثناء ترحاله كان في سورية التي يعتبرها وطنه الثاني، وفيها مصادفة القدر اقتنصته وجعلته ينصاع لوهج عشق، حتى اليوم من الصعب عليه أن يفسّر سببه، تلك الزيارة تبعتها زيارة أخرى بعد عام، لأن حلب كانت تناديه، وحتى اليوم تناديه، على أمل أن يستطيع فك شيفرة هذا السحر الذي استحوذ عليه، لعل حرارة هذا الوهج تخف وترحم أفكاره ومشاعره. وبين ما يغنيه التينور عبد النور وما يسمعه، وبين ما يستهويه وما يستغربه.. كلام طويل نقدمه لكم من خلال حواره مع صحيفة «الوطن».

غداً سأكون في دمشق لأغني الميلاد والمولد النبوي معاً

• خلال نشأتك الفنية ومسيرتك بمن تأثرت سواء من حيث الموسيقا أم من حيث الغناء؟

لا أعتبر نفسي متأثراً بأحد بشكل خاص، إلا أنني مهتم كثيراً بكل ما هو فكري أو موسيقي وحتى كل ما هو متعلق بالصوت، حتى إنني أهتم بأصوات غير معروفة ولكنها جدّ مهمة منها موجودة في الجزائر والمغرب وتونس، وحتى إنني مهتم بأصوات لمؤذنين كبار من الأقطاب العربية كافة، وما أريد الإشارة إليه هنا هو أنني دائماً أحاول التعلم والاطلاع على تجارب الآخرين وعلى التقنيات الموسيقية والفنية، وبالنسبة لمن تأثرت بهم خلال نشأتي الفنية، لدي مكتبة موسيقية غنية جداً بأسماء عمالقة منهم وعلى سبيل الذكر لا الحصر: وديع الصافي، فيروز، أسمهان، أم كلثوم في بداياتها، سعاد محمد، نور الهدى، ماري جبران، زكية حمدان، نادر الأمين، إضافة إلى صوت المطربة الراحلة ربا الجمال التي برأيي هي من أعظم وأجمل الأصوات بعد أسمهان، وهي الوحيدة التي يمكن مقارنتها بأسمهان، وأيضاً من المدرسة الحلبية هناك أسماء أتابعها مثل صبري المدلل، أديب الدايخ، صباح فخري وحسن الحفار، كما أنني تأثرت بأصوات أوبرالية عالمية، وبالنتيجة رغم ما أتابعه وأتعلم منه لكنني لا أشعر بأنني أنتمي إلى مدرسة موسيقية، فلديّ خطي الخاص الذي يشبهني ولا يشبه أي مدرسة موسيقية بالغناء العربي.

• هل الأسماء التي اطلعت على مسيرتها وكنت تتابعها هي من صنعت منك فناناً.. ولو لم تكن فناناً فما خيارك الثاني؟

لا أعرف إذا كانت الأسماء الكبيرة التي تابعتها هي سبب كوني فناناً، فأنا ومنذ الصغر أسمع غناء عالمياً، ويعود الفضل والتشجيع لجدتي التي تتمتع بصوت جميل جداً، وهي من علمتني كيف أغني، وعرفتني على الأصوات المهمة، من خلال تشجيعي للاستماع إلى أشرطة الكاسيت التي كانت لديها، فمن هنا بدأ حبي للموسيقا وكبر مع الوقت. وخياري الثاني لو لم أكن فناناً، لكنت عملت بالاختصاص الذي درسته، فأنا مجاز بعلم النفس من جامعة روح القدس في الكسليك بدرجة جيد جداً.

• هل الأمور في حياتنا وليدة المصادفة أم نحن من نصنع أقدارنا؟

لا شك بأن للاثنين أثراً كبيراً في حياتنا، ففي بعض الأوقات تكون المصادفات قادرة على قلب كيان الإنسان وكل مخططاته، وأنا أؤمن بها وبالمقابل أؤمن بالإصرار والتخطيط لتحقيق الأهداف التي أضعها والأمر الذي يحتاج مني إلى المثابرة والاجتهاد الدائم والتمارين المستديمة والتفتيش عن أفكار جديدة لتطوير الأداء والغناء والإحساس، ومن ثم فعلى الرغم من أنني أؤمن بالمصادفات إلا أنني لا أتكل عليها من دون بذل أي جهد.

• أيهما أقرب إلى الروح.. الكلمة أم اللحن.. وما طبيعة العلاقة بينهما كي تصل الأغنية إلى الجمهور ولا تموت؟

يجب أن تجمع الأغنية الكلمة واللحن هذا لأنها أغنية، ولو أنها قصيدة كنا نقول إنها تحتاج إلى الكلمة وحدها، وإذا كنا نتكلم عن التأليف الموسيقي فهنا الأهمية تكون للموسيقا واللحن بالدرجة الأولى من دون الكلمة، إذاً الأغنية تحتاج إلى الكلمة واللحن معاً وأن يضاف إليهما التوزيع الموسيقي الذي يقوم بتزيين ظهور الأغنية بالشكل الأنسب والأكمل، فهذه العناصر الثلاثة لها أهميتها في نجاح الأغنية، وباتحادها مع بعضها تخلق النجاح، والمهم أن يليق اللحن بالكلام والعكس صحيح، لأن لكل منهما تأثيره الإيجابي أو السلبي في مضمون الأغنية.

• بريق النجومية لامع وسحر الشهرة مغرٍ.. لماذا أنت غير معني بالشهرة.. هل ترعبك؟

أنا غير معني بالشهرة لأن الأضواء والبهرجة الخارجية لا تعنيني، أنا معني بالمضمون أكثر، ولا تهمني فكرة أن أكون معروفاً لكل الناس لمجرد أن أكون معروفاً، طبعاً لا أنكر أهمية الشهرة وخاصة أنها تفتح آفاقاً كبيرة، فأنا يهمني أن أكون مشهوراً ومعروفاً في الإطار الذي أنا أقدمه، فأجوائي إطارها روحي وفكري وأنا أعرف أن هذا الإطار صعب ومحدود. وبالطبع فكرة الشهرة لا ترعبني لأنني فخور بحياتي وبمسيرتي، فلا شيء يرعبني لأنني تربيت في عائلة تعلمنا فيها أن نحب وطننا وكل الناس بغض النظر عن المذاهب والطوائف التي ينتمون إليها، إذاً مسيرتي سواء على الصعيد الفني أم الشخصي فخور بها ولا ترعبني أبداً، ومن ثم فحياتي الشخصية شأن خاص وما يعنيه جمهوري ما قدمه له من فن.

• قلت: إنك تحمل وطنك بقلبك.. إلى أي مكان تذهب إليه.. هل الواقع العربي اليوم غير من مفهوم حب الأوطان؟

حبي لوطني هو شيء أساسي في حياتي الخاصة وحياتي الفنية، ولا أستطيع أن أفصل فني عن حب الوطن، فأينما أغني سواء في لبنان أم خارجها فأنا أحمل وطني بفني وبصوتي وبكياني وبأحاسيسي وحتى بنجاحاتي، لأن الوطن هو بالأساس من أعطانا المجد والفخر والفكر والعظمة والتاريخ والأبجدية، لهذا انتمائي للبنان متجذر جداً، ولا شك بعد لبنان أنا ابن سورية وأعتبرها بلدي الثاني، فسورية ولبنان إحساس واحد وأرض عظيمة وحضارة كبيرة ومهد للحضارات وللأبجدية وللجمال والطبيعة ولتعدد الطوائف والمذاهب وحب الناس لبعضها رغم المخططات المأساوية والجهنمية التي فُرضت بهدف تخريب طريقة عيشنا الراقية التي اعتدنا عليها على أرضنا النبيلة.

• أليس أمراً معقداً أن تطوّع ما هو شرقي النغم واللحن والكلام مع ما هو غربي؟

العمل على هذا الموضوع يحتاج إلى جهد كبير ودقة عالية وانتباه شديد للمسافة الفاصلة بين الغربي والشرقي كي لا نقع في أي خلل، وهنا لابد من الذكر بأن الانفتاح على الغرب أو على الموسيقا العالمية ابتدأ مع محمد القصبجي الذي أعطى لأم كلثوم ألحاناً فيها أبعاد غير عادية مثل أغنية «ياما ناديت من أسايا» وأغنية «سكت والدمع اتكلم»، فهذه الأغاني فيها انفتاح أكثر للعالمية رغم أنها في صلب الموسيقا الكلاسيكية العربية، وهذا ما تمّ عمله في أغنية «يا طيور» لأسمهان التي والليوم لم يأت صوت استطاع أن يضاهي صوت أسمهان بقدرته على الجمع بين الشرقي والغربي، إضافة للكثير من الأعمال لمحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأيضاً فيروز، فهذا الانفتاح موجود في الأغنية العربية، وهو ليس بأمر هجين أو غريب علينا، ولكن ما أجده أمراً هجيناً هو أن نغني التقنية الغربية على الكلام العربي، هنا بدأ التشويه، فأنا لا أؤمن أن تُغنى الأوبرا باللغة العربية، فهذا بعيد عما تعودنا عليه، ولكن أن يتم التوزيع الأوركسترالي على عمل عربي، هذا أمر جيد ومهم وفيه إضافة للموسيقا العربية، وأنا تخصصت بالأوبرا وقمت بالغناء بعشر لغات، ولكنني عدت إلى صلب المقامات الشرقية التي هي جزء من كياننا ووعينا واللاوعي لدينا، وأحببت أن أعطي صوتي هذه الأبعاد، كما عملت كثيراً كي يكون لي مكان في الشرقي والغربي من دون أن أؤثر سلباً في الجهتين وتجربتي كانت ناجحة في هذا الإطار.

• ذكرت بأنك تقوم بالغناء بعشر لغات.. أي منها الأقرب إلى نفسك موسيقياً.. ولماذا؟

نعم.. أنا أغني بعشر لغات وربما أكثر، ولكن اللغة الأقرب في بداياتي كانت مع الأغنية الفرنسية الحديثة العائدة للفترة الفاصلة بين الخمسينيات والسبعينيات، ولكن فيما بعد وفي الأوبرا، أصبحت اللغة الأقرب لي هي اللغة الإيطالية، ولكن حالياً هناك تواصل روحي بيني وبين الحرف العربي والكلمة العربية وأعتقد أن هذا التواصل هو الباقي.

• في يوم قلت: الرابط بينك وبين حلب بالذات لا يمكنك تفسيره.. اليوم هل تستطيع التفسير وفي ظل الظرف الحالي الصعب.. ماذا تقول لحلب؟

حتى الوقت الحالي لا أستطيع أن أفسّر الرابط بيني وبين حلب، فأظن أن الموضوع مرتبط بالروح والشجن، وكأنني عشت وتربيت فيها، وبالفعل ارتباطي بهذه المدينة العريقة، بالذات، لا أستطيع تفسيره، وخاصة أن علاقتي بها منذ عام ٢٠٠٨ وعدت لزيارتها في العام الذي تلاه لأنني شعرت بأن حلب تناديني، شعوري هذا لم أستطع تفسيره قبل ولا حتى الآن، وربما لو استطعت التفسير لكان خفّ هذا الوهج بيني وبينها، وستبقى حلب بالنسبة لي مهما جار عليها الزمن المدينة الأجمل، والمدينة التي روحي فيها والتي تناجي الوجود كلّه والكون كلّه، وأتمنى أن تتخطى هذا الكأس المر، ليس هي فقط بل سورية كلّها.

• أنت كثير الترحال والسفر.. أي من المدن غير حلب، لها وقع في قلبك أيضاً؟

كل مكان فيه تاريخ وحضارة ومبان وعمارة قديمة، يحمل معه مجداً وتاريخاً وعروقاً، ويؤثر فيّ كثيراً ومن المدن مثلا: أثينا، اسطنبول، دمشق، جبيل، والرباط القديمة في المغرب.

• أنت نخبوي التوجه في فنك.. وجمهورك له نمطه الخاص سواء بالفكر أو الثقافة وحتى في الموسيقا.. هل اليوم الشريحة الأوسع من الشباب ينقصها كل ما ذكر.. وهل هي غير قادرة على التذوق الموسيقي الصحيح؟

أعتقد أن هناك ذكاء ووعياً موجودين في جيناتنا وخاصة عند الشاب اللبناني والسوري، كما أظن أن الحرب ليست تدميراً ومدفعاً وقتلاً، بل هي تدمير للثقافة والفلكلور والتراث وللفكر، إذا الوضع يؤثر في الشباب بشكل مرعب وبالتالي يجرفه إلى الأغنية السطحية السخيفة، ولكن أنا برأيي أن الأمور إذا تمّ تصويبها بالشكل الصحيح، فسنكون قادرين على الخروج من هذا المستنقع الموسيقي والإعلامي الهابط، واليوم أنا أرى، وسأتحدث هنا عن تجربتي الشخصية، عندما يكون هناك اهتمام إعلامي بحفلاتي، فإنني أجد حضوراً شبابياً كبيراً إلى درجة أنه لا يبقى في المسرح مكان شاغر، وبالتالي هذا أمر يشعرني بالفرح، وهنا أركز على دور الإعلام الذي عليه أن يدعم الرقي وكل ما هو بعيد عن الابتذال والسخف.

• في ختام حديثنا أخبرنا عن مخططاتك المستقبلية وما جديدك؟

قريباً سيتم عرض فيديو كليبين، الأول تمّ تصويره في اسطنبول والآخر في موسكو وسان بطرسبرغ في روسيا، وسيتم العرض في بداية العام الجديد، إضافة إلى الألبوم الصوفي الذي يفترض أن يصدر في العام الجديد، وفيما يتعلق بحفلاتي فلدي أمسيتان ميلاديتان في لبنان، وفي ١٩ من الشهر الحالي سأكون في دمشق كي أغني الميلاد والمولد النبوي الشريف.

ممدوح عدوان يتأخر عن الموعد

أحمد محمد السح

«سيأتي وحده الموعدْ
وأمّا أنتَ فلن تأتي»

كتبت هذه الجملة حين مات ممدوح عدوان في ٢٠٠٤/١٢/١٩ وكنت طالباً في أواخر المرحلة الثانوية، أفكر أنني سألتقيه يوماً ما، وأقول له الكثير عن امتناني وحبي له، وربما كنت أريد وقتها أن أبهره بموهبتي. هكذا كنت أتخيل، هذا الرجل الذي لم أعرفه في المناهج التربوية، ربما لأن ما كتبه يوماً ما كان بعيداً عن السياق التربوي ذي الخط الواحد للمناهج والدروس الأدبية، فكتابته الغاضبة لم تناسب منطق التحفّظ والرزانة المطلوب غرسه في أجيال كانت سماتها تشبه سماته، تريد فقط اقتحام الحياة، لتمشي في زحامها وغضبها، لا أن تمشي بجوار الحياة. كنت قد عرفت ممدوح عدوان من التلفاز وبطريقة غريبة، أذكر كيف كان صوت التلفاز عالياً، ووحيداً يصدح حين سمعته يلقي قصيدته التي يقول فيها:

«بدمٍ تُرى أم بالدموع ملأتُ هذي المحبرة
وكتبتُ شعراً كي أعزّيَ أم رسمت على الدفاتر مقبرة»

هذه العبارة الصادحةُ كانت نقطة التعارف مع رجلٍ تابعت مقابلاته التلفزيونية التي ازدادت في سنواته الأخيرة، والتي كان ينطقُ بأفكار كانت تشعرني أنها تشبهني إلى حدٍ بعيد، أو ربما كان انبهاري به وبمنطقه جعلني أتبنى أكثر ما يقوله. كان أول كتابٍ اقتنيته له هو «وهذا أنا أيضاً» الكتاب الذي ذكر في مقدمته وكرر كثيراً خصوصيته عنده، لأن هذا الكتاب جاء مختلفاً عن سياق التأطير الذي وضعه فيه النقاد والقراء كشاعرٍ اهتم بالقضية والهموم السياسية والوطنية، فقدم نموذجاً مختلفاً في هذه المجموعة وخرج بلغة عالية الإنسانية تشبهنا كثيراً، حيثُ يوردُ فيها قصيدةً ضخمة موجهةً إلى ابنه زياد أسماها «أقمار زياد الصغيرة» وأورد فيها قصيدة مهمة هي «عاصفة ليلية» تحدث فيها من خلال مونلوج درامي متميز وفق منهج أنسنة الطبيعة لتعطي نصاً نذر وجوده في الشعر العربي ومنها نقتطف:

«... سرتُ نحو البابِ لكن مرتين
ردّني وجهٌ صغيرٌ كانَ يغفو كالحمام
ما الذي يضمن لي –
لو أنني أفتحُ للريح –
بأن يمضي ليلي في سلام؟!»

لذلك فإن ممدوح عدوان كان في كل ما كتبه يبحث عن المشاكسة في كتابته والصدق المفرط، لأن الصدق مشاكسة في أزمنة الخوف، وهو الذي كتب مجموعات شعرية كانت عناوينها متميزة وغاضبة، وفيها بحث الشاعر عن الحكمة ليكون نبي زمانه وكل الأزمنة من عناوين مجموعاته (أقبل الزمن المستحيل – أمي تطارد قاتلها – للخوف كل الزمان – يألفونك فانفر – الدماء تدقّ النوافذ – ولا بد من التفاصيل) في كتابه (لا بد من التفاصيل) وضع مقدمة أسماها (لابد من الشعر) أعاد تضمينها في كتابه (دفاعاً عن الجنون) والتي عمل فيها على التنظير لدور الشعر في حياة الإنسان مجيباً عن تساؤلات الشعراء عبر كل العصور: «لماذا نحن نكتب الشعر؟» وقد كتب هذه المقدمة بروح الشاعر لا بعقل الباحث، وهو الذي كان يكرر في مقالاته وكتبه الفكرية أن هذا الكتاب أو تلك المقالة لا تتم محاسبتها بالمعايير الأكاديمية وقوانينها، ولكنه في الحقيقة كان فيما يكتبه يبحث ويطيل البحث ربما أكثر من الأكاديميين أنفسهم، لذلك احتاجت روايته (أعدائي) إلى أكثر من ٢٥ عاماً من تجميع الوثائق، واحتاجت روايته التي سبقتها بالنشر (الأبتر) إلى البحث عن القصة الحقيقية لبطل الرواية ليأخذها من الواقع وتتحول إلى عنوان البطولة والإنسانية وآلام الحرب، وهو الذي كتب عن الحرب وأجاد في وصف علاقة الإنسان مع الحرب ليدخل إلى زوايا وتفاصيل تؤكد أنه لم يكتب عن الحرب والانتصار بلغة شعاراتية مريضة، بل بلغة الخنادق والدشم والبرد والحر والجوع لأنه خبر كل هذه التفاصيل وأكثر في الكتابة عنها حتى إن الكثير من القراء والنقاد في بداياته ظنّ أنه فلسطيني، وهو الذي كان يقول إنه يريد فلسطين كاملة دون أن يسأله أحد كيف ومتى... لكنه تميز وبشكل أساسي وربما كان السبّاق إلى ما أسميه بـ«القصيدة التاريخية» لكونه عمل على كتابة التاريخ وشخصياته بلغة جديدة محايدة مبتعداً عن العبارات الطنانة التي غلفت الشخصيات التاريخية مدحاً وذماً ليعود هو من جديد ليؤنسن التاريخ ويقربه من عقل القارئ واضعاً الشخصية ضمن سياقها الدرامي فهي لا شيطان ولا ملاك فكتبها بحيادية، إذ تميزت معظم مجموعاته الشعرية بوجود هذا النموذج من القصائد ليكون رائداً فيها، ففي مجموعته الرائعة «تلويحة الأيدي المتعبة» ستُبرز العناوين وحدها هذا النوع من القصائد مثلاً «سقطة وحشي – يوميات الحطيئة – خارجيٌ قبل الأوان – رسالة إلى أسماء بنت أبي بكر» وفي كل مجموعة شعرية ستجد شيئاً من ذلك، مثلاً ستجده يتحدث عن ثورة الزنج ضمن مجموعته «الدماء تدق النوافذ» وهي قصائد تتميز بطولها وكثافة أفكارها، وهو البعيد عن كتابة القصائد القصيرة لأنه يكتب شحنات فكرية بعواطف لا مجرد دفقات عاطفية فارغة، ومن الأشياء الكثيرة التي تذكر عن صديقي ممدوح عدوان أنه حين قرر تكريم صديقه الشاعر محمد الماغوط اخترع مصطلحاً أسماه «التلاص» وهو سرقة كتابة شاعر أو أديب آخر وتوريدها كما هي في سياقها وهو ما فعله ضمن المسرحية الجميلة «الفارسة والشاعر» التي كتبها بلغة ماغوطية عالية وأورد جملاً من شعر صديقه المكرم حتى أتعب الأصدقاء في البحث أين محمد وأين ممدوح... وكيف لا وهو سيد الكتابة الشعرية والمسرحية، ونماذج مسرحياته مثل «ليل العبيد – سفربرلك – الكلاب – حكايات الملوك» تحرّض جمهورها على التعب والاستنفار ومثلها فعل في الدراما ولن تنسى الدراما السورية ملحمته «الزير سالم» التي لا تزال تحتفظ برونقها حتى اليوم وستبقى كذلك لأنها تحمل جودة النقاش والحوار مع المتلقي حارمةً إياه الكسل والنوم على أريكته وهو يتابع الدراما كما يراد له اليوم، لذلك فإنه في كل ما كتب كان يكتب لهذا الغرض وبهذه الصورة، ويمتلك من الموهبة الكثير التي يطوعها بأشكال عديدة في الشعر والرواية والمسرح والدراما. اليوم في هذا الزمن الذي لن يرضيه حتماً لن يغيب عدوان عن ذاكرتنا كجيل يستلهمه في أيام كهذه وهو الذي كتب في مقدمة مجموعته الأولى «الظل الأخضر» بوصلته في الكتابة: (اكتب كأن أحداً لن يقرأك) نذكّره جيداً أننا ما زلنا نقرؤه وكثيراً أيضاً.